

طاهش الحوبان*

زيد مطيع دماج

لم تمض سوى عدة أسابيع منذ عاد النقيب عبدالله بن صالح إلى داره بعد عام قضاه في عدن، هارباً من الإمام يحيى.. وكان قد عاد إثر عفو عام صدر من الإمام عن مجموعة من الأحرار اليمنيين الفارين في عدن.

وعاد النقيب، ومكث في داره في الريف بين أسرته وعشيرته.. ولم يكن يشعر بالأمان أثناء ذلك، بل كان يتوقع أنه لن يسلم في يوم من الأيام من بطش الإمام.. وكم ندم لعودته من عدن وتركه زملاءه! لكن لم يكن بيده حيلة، فلم يكن بقاؤه هنالك يجدي بالنسبة له، إذ أصابه الملل والضجر وهو جامد هناك لا يقوم بأي عمل كبعض زملائه اللذين كانوا يكتبون المقالات الرنانة في الصحف والقصائد الثورية.. كان يستطيع أن يقرأ ويكتب ويتكلم لكنه غير قادر على أن يسوغ كلامه في قصيدة شعرية أو مقالة صحفية... هو يستطيع أن يطلق الرصاص ويؤنب القبائل ويثير العشائر ويجلب الغوغاء.. لكن كل ذلك كان ممكناً في الشمال.. أما في عدن فالسلاح هو القلم.. لذلك عاد إلى عشيرته حاملاً معه لقب "النقيب" عن زملائه..

حاول ولي العهد أن يتخلص منه فأرسل إليه رسولاً يطلب منه الحضور دون إبطاء، وقد تعمد ولي العهد أن لا يكون الرسول من أحد أفراد حرسه لكي لا يفتن "النقيب" لذلك..

* الطاهش هو حيوان مفترس يوجد في وديان اليمن الكبرى. وهو كما قيل مسخ ذئب وضبع، أي نتاج أنثى ضبع اتصل بها ذئب أو بالعكس. وكان أشهرها صيتاً هو ذلك الذي عُرف بطاهش وادي الحوبان. يقع الوادي بالقرب من مدينة "تعز" وتمر به القوافل الصاعدة إلى "صنعاء" والهابطة منها. والوادي في حد ذاته مؤهلاً لتسكنه الوحوش الكاسرة، ففيه الكثير من الأحرار والمستنقعات والأدغال.. وما أن يخيم المغيب حتى تخمد فيه الحياة.. وإذا ما سافر الإنسان فيه ليلاً ووحيداً يعد من الأبطال المغامرين.. ذلك هو وادي الحوبان.. وذلك هو طاهش الحوبان، الوحش الذي بات أسطورة تُسكت به الأمهات أطفالهن عند البكاء أو المشاغبة..!! أما بطل القصة فهو حقيقي، والقصة في حد ذاتها واقعية.. فالكل يعرف الشهيد "عبدالله بن حسن أبو رأس"، أحد شهداء قبيلة "ذو محمد"..

ولما كان الوقت ليلاً فقد خاف أهله عليه من الخديعة وذكروه بما حدث لأحد أفراد الأسرة الذي دُبرت له خديعة قبل زمن بعيد على يد الأتراك.. لكنه لم يخفل بذلك.. بل أسرج حصانه وأخذ تابعه واتجه صوب "تعز" لملاقاة ولي العهد.

ووصل سوق "القاعدة" ومازال أمامه قاع "الجند" ووادي "الحوبان" الرهيب الذي يسكنه ذلك الوحش الذي عُرف "بطاهش الحوبان".. الذي لم يدع قرية من قرى الوادي إلا غزاها، ولا طريقاً من طرقه إلا وقطعه.. بل أنه كان يغزو مدينة "تعز" نفسها..

واتجه "النقيب" نحو "قاع الجند"، وكان الليل قد انتصف وأرسل القمر أشعته البيضاء الفضية من خلال السحاب راکضة نحو قمم الجبال الشاهقة، والقاع من حولها ملأته السكينة والصمت الذي لا يقطعه غير عواء ذئب أو نعيق بومة... وكانت حوافر الفرس تدك الحصى وهو يقطع قاع "الجند" الكبير..

وعند مقهى في الطريق وقف التابع خائفاً أن يستمر سيده في مسيرته وأمامهم وادي "الحوبان" بوحشه الكاسر.. وأخذ التابع يقدم الرجاء لسيده أن يبيتا ليلتهما في هذا المقهى، لكن كيف يخضع الرجل، الذي خضعت له الرجال، لوحش.. كان يتمنى أن ينزله منذ زمن بعيد...

نهر "النقيب عبدالله" تابعه بحدة، فما كان من التابع إلا أن أطاع كارهاً لعلمه أن سيده لن يتورع عن قتله إذا علم بخوفه وجبنه، خاصة وقد اختاره من بين صفوفه رجاله لكي يرافقه في هذه الرحلة.. وواصل السير.. ومن "قاع الجند" وصل بهم الطريق إلى رقعة واسعة من الأرض ملامى بالحجارة والرمال، وكان ذلك إشارة إلى بداية وادي "الحوبان"، وزاد هلع التابع عندما شاهد قبة لضريح أحد الأولياء، فهي تتوسط الوادي ولا يبعد عن عرين "الطاهش" كما يقال إلا قليلاً.. وبينما التابع في فزعه كان "النقيب" يدندن بلحن شجي غير عابئ بما سيواجهه من أخطار..

وفجأة.. أجفلت الفرس.. وعلا صهيلها.. وما أن سمع التابع ذلك حتى صاح بسيده

بصوت مرتعش..:

- لقد داهمنا "الطاهش" يا سيدي..

فأجابه النقيب محاولاً السيطرة على مخاوفه:

- لا تخف يا هذا..!

- لكنه يحاذينا الآن يا سيدي...

- لقد رأيتك منذ دخلنا الوادي يسير محاذياً لنا.. وقد اقترب الآن قليلاً لأن الطريق

ضيق.. فلا تخف وكن رجلاً..!

لم يتمالك التابع نفسه، وكان يسير بجوار الفرس من ناحية الوحش.. غير من موقعه وأمسك بقدم سيده من الناحية الأخرى بينما كان "النقيب" يحاول السيطرة على فرسه. أما "الطاهش" فقد بدأ يظهر أمامهم بين أشجار الأثل وخلال مستنقعات الوادي.. يقفز تارة ويمشي الهوينى تارة أخرى.. وكان "لطاهش الحوبان" طريقة عجيبة اشتهر بها للقضاء على فريسته.. فهو يسير محاذياً فريسته مسافة كافية لتحطيم معنويتها، وعندما تفقد الضحية معنويتها تتصلب هلعاً وحينئذ يهاجمها ولا ينشب مخالفه فيها وإنما ينطحها حتى يلقيها أرضاً ثم ينطلق يصيح بعيداً عنها مسافة كبيرة مزهوا فخوراً. ثم يعدو إليها ليخلصها من ثيابها بعملية وحشية.. ويسحبها إلى عرينه.. وكثيراً ما كان الناس لا يجدون من الضحية إلا ثيابها..

لما يئس "الطاهش" من فريسته هذه المرة أن تنهار اقترب أكثر حتى بان ملامحه تماماً "للنقيب" الذي شاهده لأول مرة.. كان الطاهش طويل المنكبين واسع الصدر أبيضه، له رأس لبؤة ومخالب فهد. أما يدها فطويلة غليظة، ورجلاه الخلفيتان قصيرتان، وكان ممشوق القوام إلى درجة النحول في الوسط..

وأجفلت الفرس عندما شممت رائحته.. وانهار التابع وبدأ يتصلب.. ونزل "النقيب" من على صهوة فرسه وأمسك بها بقوة، ثم صاح بتابعه أن يربطها في جذع شجرة كانت بجواره فلم يجد للتابع أثراً.. صاح من جديد لكنه سمع صوت حركة من فوقه فالتفت إليها فإذا به يجد التابع قد تسلق الشجرة وهو مغمض العينين غير شاعر بأي شيء حوله..

ربط النقيب عبدالله فرسه، وأحكم ربطها في جذع الشجرة وهي تحاول الإفلات من رباطها، لا تدري أنها بمحاولتها هذه ترتكب حماقة كبرى وتغامر بحياتها.. وكان "الطاهش" في أثناء ذلك قد توقف وانتصب على مؤخرته بينما كان "النقيب" قد أمسك ببندقيته القديمة ورفع مفتاح

الأمان، وسار عدة خطوات مجاوراً لشجرة أخرى ربض بجوار جذعها.. اقترب "الطاهش" منه لينطحه النطحة الأولى فضغط "النقيب" زناد بندقيته وانطلق صوتها يدوي ممزقاً سكون الوادي، بينما اخترقت الرصاصة نحر "الطاهش" فانقض على جذع الشجرة وارتطم بها بينما كان "النقيب" قد وثب إلى مكان آخر، وعباً بندقيته برصاصة أخرى وأطلقها فاخرقت رأس الوحش الذي أخذ يتلوى من الألم، لكنه انقض من جديد قاصداً مهاجمة "النقيب" الذي لم تطاوعه البندقية في الانطلاق..

وتمالك "النقيب" أعصابه فأفرغ وعباً البندقية من جديد لكن دون جدوى.. كان الوحش قد اقترب منه وجهاً لوجه، وفتح ذراعيه ليطبق بهما على "النقيب" الذي أدخل ماسورة البندقية في فمه المفتوح، واستل خنجره وأغمده في جوف "الطاهش" عدة مرات.. سحب "النقيب" جسمه من تحت جثة "الطاهش"، ثم أصلح من شأنه وصاح بتابعه أن يأتي ليشاهد "الطاهش"، لكن التابع كان في سبات عميق من الرعب فلم يسمعه، وعندئذ قذفه بحجر فوق الشجرة فانتبه مذعوراً وتحرك..

وتقدم "النقيب" من الطاهش ليقطع لسانه كدليل يفخر به دائماً، لكن الوحش كان ما يزال يتلوى ويعاني من سكرات الموت فخاف "النقيب" على يده إذا أدخلها فمه أن يطبق عليها، ولذا أدخل مؤخرة بندقيته في فم "الطاهش" فلاكها بين فكيه حتى كاد أن يقع "النقيب" أرضاً.. وهنا، ولأول مرة، يبدي التابع حركة واعية فيأخذ حجراً كبيراً ويقذف به داخل فم الوحش، وكانت المفاجأة عندما تحولت تلك الحجرة إلى رمال داخل فكيه.. ولم يجد النقيب بداً من الانتظار حتى مات "الطاهش" وانقطعت منه الحركة، وعندئذ قطع لسانه..

وتحرك "النقيب" مع تابعه نحو "تعز" وقد بدأ يشدو مغنياً، والتابع يردد الغناء بعده..